من أعلام القضاء

فضيلة الشيخ : حمود بن حسين بن محسن الشغدلي

(١٢٩٥ - ١٣٩٠) قاضى حائل الأسبق

إعداد : حمد بن عبدالله بن خنين

ثمة أناس كالمطر الذي يطرح الله فيه البركة والخير على السهول والأودية وسفوح الجبال، وكنبت الأرض والشجرة المباركة التي تؤتي أكلها في كل حين تنشر الخير والظل والثمر للناس.

هكذا هم العلماء والمشايخ يقدمون العطاء تلو العطاء بلا حدود، فقد حباهم الله سبحانه وتعالى العلم وسخّرهم لخدمة الناس وصاروا للناس قلوباً رحيمة وصدوراً مفتوحة للمشكلات والقضايا يفتحون بيوتهم لمناقشة الناس في أحوالهم بما أوتوا من العلم والحكمة.

ها هو الشيخ حمود الحسين كما يسميه أهل (لبدة) في حائل، كالعلم البارز، يعد في ذلك الوقت جامعة يستلهم الناس منها العلم والفقه والحديث، وقد أصبح رمزاً للحكمة والفراسة والقياس في الحكم حينما كان قاضياً في حائل، وكان - رحمه الله - دمث الأخلاق لين المعشر، تغلب عليه الطرفة والدعابة حتى وهو يحكم بين الناس، وكانت مجالسه ممتعة ومحادثته شيقة، وكان يحل القضايا بهدوئه المعهود وبحكمته الفذة. إنه ذلك الرجل الذي يتجدد الحديث عنه، عن ثقافته، عن فطنته، عن علمه، عن عدله، عن سعة أفقه، عن لماحيته، حتى لتشك في أنك تعرفه مثلما تعرف ذاتك، وربما أكثر بكثير. ها هو يغشى محرابه.

ها هو يدخل مسجده غسقاً، في أحد أزقة (لبده) ها هو ينفض لقمته من يده ليفصل بين الناس.

ها هو قد مرّ كالطيف ، يجلو بتفكّهه مع عامة الناس صدأ القلوب المحتقنة ، ويأسو جراحها ، ها هو يقف هناك على قارعة التأريخ القريب ، ليشدّ أنشوطة القدوة ، بل ليوقد للعابرين في عباب الظلمة ، ضوء الإيمان ونوره .

قد لا ينفرط عقد مجلس ما دون أن تروى فيه نادرة من نوادر الشيخ ، أو طرفة من طرائفه ، وقد لا يشعر أحدنا أنه مؤهل (لعلوم الرجال) إن لم يزين حديثه بواحدة من لطائف ذلك الشيخ الجليل، والعلامة الفذ!.

لم يكن (حمود الشغدلي) مجرد قاض في محكمة ، ولا كان مجرد رجل علم كبير بحجم جامعة عريقة ، وإنما كان فوق هذا وذاك ، الشيخ الذي لم يستأنف حكمه أحد، ولم يخرج من ساحته أحد دون أن يرفع كفيه بالدعاء له!.

أما حينما تريد أن تكتب تعريفا لهذا الشيخ (الأزهري) الجليل ، الذي تعرفه الذاكرة الشعبية باسمه الثنائي (حمود الحسين) ، أو بمفردة واحدة استقل بها وحده ، هي (الشيخ) ، فإنك لا تملك إلا أن تقول: أنه الرجل الذي جرّ النجومية إلى ساحة القضاء عنوة ، بفضله وعلمه وأدبه ، تماماً مثلما فعل أبو يوسف وإياس وغيرهما من دهاة القضاء في تاريخنا الإسلامي.

مولده ونشأته

هو فضيلة الشيخ حمود بن حسين بن محسن الشغدلي، ولد في حائل سنة ١٢٩٥هـ ونشأ وترعرع في كنف والده حسين حيث كان والده ملازماً لإمام مسجد (لبدة) الشيخ عوض بن محمد الحجي الذي أخذ عنه حب العلم والاطلاع في أمور الدين. وقد أقام الشيخ حمود مع والده في منزله الكائن بحي (لبدة)، وهو من أشهر الأحياء وأقدمها بحائل، وقد سكنه رجال علم وفكر.

من أعلام القضاء

تعليمه ومعلميه

قرأ القرآن على يد الشيخ مبارك بن عواد وأخذ الفقه والعقائد والفرائض والنحو وغيره على يد الشيخ صالح السالم ولازمه في مجالسه وهو أكثر من انتفع علما ومعرفة من الشيخ صالح حتى توفي الأخير رحمه الله، كما اخذ قواعد النحو عن الشيخ عبد الكريم العبيدا والشيخ حمد بن فارس، انتقل إلى الرياض عام ١٣٢٦ه ولازم الشيخ الإمام عبد الله بن عبد اللهيف وانتفع منه في التوحيد والعقائد، اجتهد وحصل حتى صار من كبار علماء الدين البارزين، كان صالحاً محباً لطلبة العلم رحيماً عطوفاً على الفقراء والمساكين شجاعاً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كان أيضاً قوياً لا تلين له شكيمة عجيبا بفصاحته وبلاغته مما ساعد الكثير من طلبته.

تعلّم الشيخ حمود الحسين - رحمه الله - على الكثير من رجال الفكر والعلم من داخل المنطقة وخارجها، وفي حائل تعلّم على يد فضيلة الشيخ عثمان بن عبد الكريم العبيداء فدرس على يدي فضيلته علم الفرائض، وأول المشايخ الذين درس الشيخ حمود على يديه القرآن الكريم وتجويده هو الشيخ مبارك بن عواد - رحمه الله - وكان الشيخ حمود - رحمه الله - قد تعلم تفسير القرآن الكريم والحديث والفقه والتوحيد على يد الشيخ العلامة صالح السالم البنيان - رحمه الله - المتوفى سنة ١٣٣٠هـ وكان الشيخ حمود يكن له المحبة والاحترام ويعتبره منارة العلم والمعرفة في منطقة حائل آنذاك، وقد رثاه الشيخ حمود بعد وفاته بمرثية شعرية منها قوله:

ولله شخص قد ثوى في فؤاديا فاطلب رب العرش يحسن عزائيا ويعظم أجري ثم يرحم حاليا غداة وفاة الشيخ أعظم مابيا ولكن أمر الله لا بد ماضيا لرب السماء وأهلي وماليا ومرجعنا لله ذى الحمد والشناء ويأجرني فيما دهى من مصيبة لقد حل خطب لم أر الدهر مثله ولو كان يفدى بالنفوس فديته

لقد درس الشيخ حمود القرآن الكريم وتعلمه وحفظه منذ الصغر، وكان جيداً بعلوم اللغة العربية والنحو، وكذا علم الفرائض والقضاء، وكان قوياً بإنكار المنكر، وقد ضحى بوقته وماله لنشر العلم الشرعي، وعمل بالقضاء بحائل من عام ١٣٥٨ه حتى نهاية ١٣٨٠هـ، وقد حباه الله الإخلاص لدينه وأمته.

واصل الشيخ حمود مسيرته العلمية خارج منطقة حائل، فذهب إلى الرياض سنة ١٣٢٦هـ ودرس على يد أعيان علمائها: فتعلم النحو والفرائض على يد العلامة الشيخ حمد بن فارس، واستزاد في دراسة التوحيد والفقه وأصول الدين وفروعه على يد الشيخ العلامة عبد الله بن عبد اللطيف آل الشيخ، والعلامة الشيخ سعد بن حمد بن عتيق، وحج وقرأ على علماء مكة المكرمة في الحرم المكي ومن أبرزهم: الشيخ شعيب الداكالي المغربي، والشيخ أبو بكر خوقير، وفي نهاية مشواره التعليمي لازم الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف بالرياض، ثم عاد إلى حائل فالتفت إلى حلقة العلم التي تعقد بحضوره، ودرس على يديه كثير من طلبة العلم.

عمله في القضاء

لقد مارس القضاء منذ صغره وبعد دخول الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود غفر الله له لمدينة حائل وتعيينه للشيخ عبد الله بن بليهد قاضياً رسمياً في مدينة حائل عام ١٣٤٣هـ حسب طلب الأهالي هناك عين الشيخ / حمود بن حسين الشغدلي كنائب عنه في القضاء. وقد أوكله الملك عبد العزيز في القضاء نيابة عن الشيخ البليهد عندما كلف الأخير بالعمل بمكة المكرمة وذلك علم ١٣٤٤هـ حسب خطاب التكليف المخطوط والذي بعثه الملك عبد العزيز بهذا الصدد لفضيلة الشيخ / حمود بن حسين الشغدلي.

وقد استمر كنائب في القضاء فترة بقاء الشيخ البليهد هناك بحائل الذي دام قرابة

إحدى عشرة سنة تقريباً.

تعرض عام ١٣٥٥هـ إلى مرض بالعينين وأصيب بالعمى فسافر إلى القاهرة وتعالج هناك ورد الله له بصره.

ثم أصبح قاضياً رسمياً في حائل عام ١٣٦٢هـ بعد الشيخ البليهد إلى أن أحيل على التقاعد لكبر سنه وذلك عام ١٣٧٨هـ.

وكان حكيماً في قضائه ذا حجة قوية ذكياً بارعاً وشاعراً متقناً، له عدة قصائد قوية في المديح والمراثي منها مرثيته الشهيرة بالشيخ صالح السالم.

تلامدته

درس وتعلم واخذ عنه الكثير من علماء ومشايخ حائل أمثال الشيخ علي الصالح السالم والشيخ عبد الكريم الصالح السالم والشيخ عبد العزيز العريفي والشيخ محمد الخلف العبد الله والشيخ إبراهيم الحماد والشيخ عبد الله الشلاش والشيخ عبدالرحمن بن عبد الله الملق والشيخ محمد المشاري وغيرهم من طلبة العلم بحائل، كان كثير البركة على طلابه في اللغة العربية والفرائض، وقد تخرج على يد الشيخ حمود خيرة كبار العلماء.

مجالسه العلمية

كان -رحمه الله -يحرص على عقد مجالس العلم في بعض البيوت، ونذكر منها: بيت الشيخ حسين بن صالح الشامي بعد صلاة الفجر كل يوم عدا يوم الجمعة، وفي هذا المجلس يحضر عدد من طلاب العلم يقرأ عليهم الشيخ عبد الرحمن بن سليمان الملق من تفسير ابن كثير وبعض كتب التاريخ الإسلامي، وبعد وفاة الشيخ الشامي - رحمه الله -انتقل المجلس إلى بيت الشيخ علي الصالح السلم وأخيه عبد الكريم

الصالح، وكذلك بيت الشيخ محمد بن عبد الرحمن العساف، ثم إلى بيت الشيخ علي علي عبد العريفي، وعلى النهج نفسه من القراءة والاطلاع والشرح أحياناً من الشيخ حمود الحسين.

دراسته في الأزهر

ولشغف الشيخ حمود بالعلوم، فقد سبق عصره في نظرته المستقبلية لأهمية العلوم والقراءة الواعية للواقع الذي يعيشه في أهمية الاستزادة والولوج لمجتمعات أخرى أكثر انفتاحاً على العلوم، فقرر في ذلك الوقت – الذي كانت الناس فيه لا تعرف سوى حدود الحارة وشوارعها الضيقة وناسها البسطاء – أن يطلق العنان لفكره النيّر ليتعدى الحدود، ولتصل أحلامه إلى الجامع الأزهر في مصر، فسافر ودرس في الجامع الأزهر، ولا يزال اسم الشيخ حمود في سجلات الجامع الأزهر، وقد كتب عنه كثير من الكتاب منهم أحد طلابه وهو على بن محمد الهندي في كتابه (زهرة الخمائل)، حيث أثنى فيه على فضيلة الشيخ حمود، وقال: إنه من كبار العلماء بحائل، وكذلك البسّام أثنى عليه في كتابه (علماء نجد).

مكتبته الخاصة

لقد كان – رحمه الله – يهتم بالثقافة العامة ويتصفح المجلات والصحف كصحيفة أم القرى التي كانت تصدر آنذاك، ويوجد في مكتبته الخاصة ما يزيد على سبعمائة مجلد تشتمل على كتب العلوم الشرعية، ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: مجموعة فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية في عشرة مجلدات، وتفسير الطبري الاسم جامع البيان في تفسير القرآن في عشرة مجلدات مطبوع عام ١٣٢١هه، وكتاب

من أعلام القضاء

تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد لمؤلفه الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب (مخطوط غير مؤرخ)، وكتاب قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان لجلال الدين السيوطي (مخطوط)، وغيرها من كتب التاريخ والجغرافيا والشعر والأدب وكتب الطب والأعشاب، ويشرف على المكتبة في الوقت الحاضر أحد أبنائه الباحثين في المكتبة ومحتوياتها، وقد أصدر إبنه عبدالرزاق كتاباً عن الشيخ في عهد الملك عبد العزيز - رحمه الله - والذي قال: إننا لا نزال نحتفظ بكامل محتويات المكتبة والوثائق والمخطوطات؛ فهي وقف لطلبة العلم يرتادها طلبة العلم من المنطقة وخارجها، ومقرها بعمارة من أوقاف الشيخ في حي (لبدة) مقابل المسجد الاسم باسمه رحمه الله.

سعة إطلاعه

من سعة اطلاعه كان يقرأ في أمور البلدان الأخرى، وإنه ذات مرة وهو جالس مع الإخوان أبلغهم أن الصحف تناقلت وفاة غاندي رئيس الهند، فرد أحدهم بعبارة ذم له بصفته غير مسلم، فرد الشيخ: إن هذا الرئيس هو الذي حرر بلده من الاستعمار الإنجليزي.

اهتمامه الشعرى

ومما يؤكد اتساع الحسس الثقافي لدى فضيلته، تعدد العلوم التي تحتويها مكتبته الخاصة وميوله في تذكير نفسه في بعض الأمور بأبيات شعرية من نظمه، فله منظومة شعرية قالها بهدف تقريب حفظ فصول السنة بالأشهر الرومية وذلك بتاريخ ٢٣ شعبان ١٣٦٠هـ وهي على النحو التالي:

حزيران تموز وآب هي الصيف شــتاء له كانون مع آخر يقفوا مرتبة في ذي الفصول ولا خلف فآذار نيسان أيار ربيعهم خريف له أيلول تشرين آخر ويتلوهما أيضاً شباط فهاكها

وكان شعره يواكب مسيرة توحيد البلاد على يد مؤسس هذا الكيان الملك المؤسس عبد العزيز في مناسبة دخول الملك عبد العزيز إلى حائل وانضمامها تحت سيادته، قال فضيلة الشيخ قصيدة في هذه المناسبة في تاريخ ١٨ - ٣ - ١٣٤٠هـ:

وأنشر ما يطوى وأبدي تشكرا وإني بما أبدي أراني مقصرا وإني بما أبدي أراني مقصرا بظل الذي عز الهدى مذ تصدرا كما ينبغي لله دأباً مكسررا وأعلى منار الحق فينا وأظهرا خلائق والغاوي عن الرشد ما درا له في العُلا سبق وقد فاق مفخرا حليف الوفاء والله ما كان أغدرا

أهنيك يا هذا الإمام بما جرى وأهدي سلاماً لاجتذاب مودة له الحمد مولانا على جمع شملنا له الحمد إن أعطى المنى وكفى الردى أزال ظلام الغي والظلم والهوى وأخمد ناراً كاد يطفي لهيبها على يدي ميمون الطليعة مَن غدى إمام الهدى عبد العزيز أخي التقى

وفي مناسبة فتح الحجاز في ٢٠ جمادى الآخرة ١٣٤٤هـ رفع فضيلته إلى جلالة الملك عبد العزيز قصيدة مكونة من واحد وثلاثين بيتاً من الشعر الخماسي مطلعها:

وأقشع ليل الظلم لما بدا السعد تهلل وجه الدين واستعلن الرشد فأبعد عنها الجور والغشم والشقا على الرغم لا يجلو النزال ولا اللقا

شموس سعود أشرقت إذ سمت نجد ولما استوى بدر الدجا والعدا ندوا بمكة وانزاح الردى وانمحا اللد وأجلى من يرقى بها خير مرتقى

لدن حلها أهل الديانة والتقى وصدق الإخاء والأسدان حارب الضد

من أقضيته

كان رجل من إحدى القبائل التي تتنقل بين منطقة حائل ومنطقة المدينة المنورة، قد أودع مستنداً شرعياً فيه مبلغ من المال على رجل من أهل المدينة، أودعه عند رجل يسكن مدينة حائل، وهو ليس من أهلها وكان هذا الرجل يتعامل مع البادية كثيراً وله مشاكل كثيرة معهم، مركثير منها على فضيلة الشيخ حمود بن حسين الشغدلي، وبعد مدة جاء صاحب المستند إلى الرجل الذي أمن عنده المستند، وطلبه فقال انه ضاع وبحثت عنه ولم أجده ، فاقتنع صاحب المستند وصدقه بما قال ، وبعدما خرج إلى السوق قابل رجلاً من أصدقائه وحكى عليه قصة المستند، فقال له صديقه إنه كاذب ومحتال، وربما يحاول الاستفادة من السند مع صاحب المدينة بطريقة أو بأخرى وأرى أن تقدم ضده شكوى إلى أمير البلد، وفعلاً قدم صاحب السند شكوى، وبعث معه أمير البلد أحد رجاله إلى الشيخ حمود رحمه الله، وبعد انتهاء الشيخ حمود من تدريس الطلبة في الحلقة التي يعقدها في المسجد بعد صلاة الظهر من كل يوم عدا يوم الجمعة، جلس أمامه صاحب السند والرجل الذي عنده السند وأبدى كل منهما حجته، وأصر الذي عنده السند أنه ضاع ولا يعرف عنه شيء، فقال له الشيخ: هل احترق بيتك أو دكانك؟ قال: لا، قال: هل تهدم بيتك بسبب أو غيره ؟ قال: لا. فقال الشيخ لخادم الإمارة كما يسمونه في ذلك الوقت، إما أن يعيد السند إلى صاحب ويدفع لصاحبه المبلغ الذي فيه، و إذا لم يفعل فأنت تدخله الخشبة، يعني في السجن، فجعل الرجل يولول ويبكي ويستغيث بالحاضرين من المشايخ، ولكن الشيخ صمم على تنفيذ ما ذكر، وبعد خروجه من المسجد قال الحاضرون من المشايخ، لو استحلفت الرجل لأن اليمين إلى من أنكر،

فرد عليهم الشيخ قائلاً: أن اللجوء إلى اليمين آخر شيء نتخذه مع هذا الرجل، لأنه صاحب سوابق تجلى فيها كذب واحتياله، وأتوقع أنه سيعيد السند إلى صاحبه هذا اليوم، وقبل غروب الشمس وبعد صلاة العصر، عاد خادم الإمارة ومعه السند، وقال: بعدما خرجنا من عندكم طلبني أن يدخل إلى بيته، وبعد قليل خرج إلينا ومعه السند، وقال: أنى وجدته بين أوراق عندي... ذكر لنا هذا أحد طلبته يرحمه الله. رحم الله الشيخ حمو د له قصص عجيبة ومؤثرة.

وعندما كان قاضي لحائل، كان مشهوراً بالعدل والشجاعة والذكاء، فمن أحدى القصص اللي تروا عنه أتاه إثنان، و قالوا شفنا الهلال يا شيخ حمود، فقام ففرقهم عن بعض، وأتى بالأول، فقال له: وكيف رأيته؟! فرد: رأيته كذا و كذا؟ وأتى بالأخر وسأله فكانت إجابته مخالفة لوصف الأول، وعندما واجه الأول اتضحت الحقيقة، فقال: يا لله بس أقم يا مؤذن نريد أن نرتاح بالصلاة عن قول اللغو والبهتان.

عالمية شهرته

في أحد الدول الغربية توجد صورة فيها العجب العجاب لوحة كانت لعالم فرنسي زار حائل، وهي عبارة عن رسمة ظهر فيها كل من الشيخ حمود بن حسين الشغدلي وعبيد بن رشيد (المسلماني) وهو من العوائل المشهورة في حائل.

مواقف قضائية

له مواقف عادلة وشجاعة، وينتهج سياسة شرعية في كثير من المواقف، ومما ذكره أحد محبيه ومعاصريه: عبدالرحمن الملق: كان الشيخ حمو درحمه الله في أحد أيام الخميس الذي يزور فيه أمير البلدهو ومجموعة من المشايخ وطلبة العلم. وفي أثناء عو دتهم قابلتهم

في الطريق وهم يمشون على أقدامهم حيث إن استخدام السيارات في ذاك الوقت قليل. وسرت في معيتهم وعندما وصلوا قرب شارع (سرحه) لحق بهم رجلان يختصمان فقال أحدهم يا شيخ بارك الله فيك انظر بدعوانا فالتفت الشيخ إلى الإخوان الذين معه وقال ما رأيكم لو جلسنا هنا، ونظرنا في مشكلتهم فقال له الإخوان الذي تراه يا شيخ فجلس على عتبه باب يقع على الشارع العام وكانت العتبة من الطين المتهدم والجلوس عليها غير مريح وجلس معه إخوانه العلماء رحمهم الله جميعاً وكنت واقفا معهم فأبدى كل من الرجلين حجته فدار بينهما وبين الشيخ نقاش قصير لم يستوعب أكثر من خمس دقائق انتهى بالإصلاح بين المتخاصمين وصافح كل منهما صاحبه وانصرف وهما يشكران الشيخ ويدعوان له بالصحة وطول العمر. وانصرف وهما يشكران الشيخ ويدعوان له بالصحة وطول العمر. التجربة، بصمته واضحة في تاريخ منطقة حائل حيث كان اسمه حاضرا في جميع منعاصل الجربة، بصمته واضحة في تاريخ منطقة حائل حيث كان اسمه حاضرا في جميع مفاصل الحياة القضائية والاجتماعية والسياسية.

وفاته

توفي رحمه الله في الثامن من ذي الحجة عام ١٣٩٠هـ عن عمر يناهز ٩٥ عاما قضاها في طاعـة ربه ومـولاه، رحمه الله رحمة واسعة وأدخله فسيـح جناته، وقد فقده الكثير وخاصـة أهالي حائل، حيث كان علما من أعلام الفقه والقضاء، ورجل المواقف خدمة الناسس والشهرة في العلم وحسن التعامل والأخلاق العليا والصفات المثلى والرجاحة والفهـم والنبوغ، وقد حباه الله الإخلاص لدينه وأمته، مر كالطيف لكنه أوقف التاريخ برهة، فكان من عظماء الرجال الأوائل.